أنباء غير سارة

- الإسكندرية تحت الحراسة.
- هل كان يمكن أن يحدث في الإسكندرية ما وقع في القاهرة ؟
- في أول يوم للوزارة كان عليَّ أن أعرف من الذي أحرق القاهرة.
- إجازة سعيدة قضاها جنود بلوك النظام في العامرية يوم حريق القاهرة.

في العاشرة من صباح السبت ٢٦ يناير ١٩٥٢. دق التليفون الموجود فى مكتبى فى الإسكندرية - وكنت محافظا لها - لأسمع على الطرف الآخر. وزير الداخلية فؤاد سراج الدين يسألنى كيف الحال عندك فى الإسكندرية ؟!

قلت: هادئ.. شوية مظاهرات يمكن فى الجامعة وبعض المدارس.

قال: وبلوك النظام مشترك فيها ؟

قلت بسرعة: أبدا .. مين قال كده ؟

قال: غريبة.

وسكت استلفتَ نظرى كلمة غريبة التى كان يبدو منها أن اشتراك قوات بلوك النظام فى المظاهرة أمر عادى، وأن الاستثناء أو الغريب هو عدم اشتراكهم.

قلت: وهل بلوك النظام عندكم فى القاهرة مشترك فى المظاهرات ؟!

- قال: نعم..

- قلت وكيف الحال فى القاهرة ؟

- قال: هناك مظاهرات ولكن الموقف هادئ بصورة عامة.

حصر الخسائر

وانتهى الحديث التليفونى..

وما هى إلا ساعة أو أكثر حتى بدأت الأخبار ترد من القاهرة حاملة أنباء الكوارث التى بدأت تواجهها العاصمة.. فندق شبرد الكبير - وكان مكانه فى شارع إبراهيم باشا وحاليا شارع الجمهورية - يحترق، والنزلاء يلقون بأنفسهم، أو يُلقى بهم من الأدوار العليا للنجاة من الحريق. المتاجر والمحلات الكبرى التى يملكها الأجانب تحترق وينهب ما فيها. البنوك يتم اقتحامها والاستيلاء على خزائنها ونهبها أو إلقاؤها من النوافذ لكى تقع فى الشوارع ليلتقطها المارة ويتقاسموا ما فيها!

نـادى «الترف» – أو «الـترف كلوب» وهو نـاد إنجليزى – كان مكانـه محطة البنزين الموجودة فى شارع عدلى – يهاجم ويضرب الإنجليز داخله ويقتلون.. دور السينما تحترق .. الملاهى والمتاجر تشتعل فيها النيران..

هل كان كل هذا صحيحا أو إنها أخبار من نوع الشائعات؟! فالصورة كانت تتضخم وتحمل تفاصيـل مهولة حتـى تصورنا أن القاهرة كلها قد احترقت.. ولكنْ.. بعد أن تبددت سـحب الدخان الكثيفة التى أحاطت بالقاهرة فى ذلك اليوم العجيب من تاريخها .. وبعد أن انفضت الجموع التى ملأت الشوارع، واستعادت أجهزة الأمن سيطرتها على هذه المدينة الجميلة التى يعود تاريخها إلى ألف سنة مضت، تبين أن الحريق أصاب:

٣٠٠ محل..

١٠٧ مكاتب أعمال..

١٣ فندقا..

٤٠ دارًا للسينما..

١٦ ناديًا ..

٣٣ مطعما وصالة رقص وملهى..

٨ محلات لبيع السيارات..

بنكا واحدًا..

٩٢ بارًا ..

.....

.....

لم تكن الخسارة سهلة كما هو واضح، وإنما كانت جسيمة ومذهلة.

وعلى رغم ذلك ظل حريق القاهرة سـرا مطويا .. وظل السؤال: من الذى أحرق القاهرة؟! لغزا محيرا!!..

وكان قدرى أن أدخل الوزارة لأول مرة فى حياتى وزيرًا لداخلية مصر يوم الأحد ٢٧ يناير ١٩٥٢. لكى أحاول الإجابة عن هذا السؤال اللغز..

ولم أكـن فى ذلك الوقت قد أكملت ٤٢ سـنة .. فأنا من مواليـد ١٤ يوليو عام ١٩١٠. وقد عملت فور حصولى على ليسـانس الحقوق معاونا للنيابة، ثم محاميا بقضاء الحكومة. ولصلة بين والدى المرحوم الشيخ مصطفى المراغى شـيخ الأزهر الأسـبق ومحمد باشا محمود رئيس

الوزراء.. فقد عملت سكرتيرا له لكنني استقلت من الوظيفة ورشحت نفسي عام ١٩٣٨ لمجلس النواب عن دائرة المراغة بلدتي في محافظة سوهاج مستقلاً عن جميع الأحزاب، وكنت واحدا من أصغر الذين عرفوا طريقهم إلى البرلمان.

كان من المفروض أن أعمل بالمحاماة، لكن القدر اختار أن أعود إلى الوظيفة وأن أنتقل للعمل وكيلا لمحافظة القناة وكانت تضم بورسعيد والإسماعيلية، ثم وكيلا لمحافظة الإسكندرية، ثم محافظا للسويس، فمديرا لمديرية بني سويف ثم القليوبية ثم قنا. وفي عام ١٩٤٧ عينت مديرا للأمن العام ثم وكيلا لوزارة الداخلية حتى عام ١٩٥٠ حيث عينت محافظا للإسكندرية.

ومن الإسكندرية وصلت إلى القاهرة يوم الأحد ٢٧ يناير ١٩٥٢ لأدخل وزارة على باشا ماهر وزيرا للداخلية.

وكان أمامي أن أحاول الإجابة عن هذا السؤال اللغز: من الذي أحرق القاهرة ؟!

هل كان يمكن أن يحدث في الإسكندرية ما وقع في القاهرة ؟

كثيرا ما فكرت في ذلك..

ولا أعرف هل هو الحظ أو هو الحرص الذي جعلني - وكنت المسئول عن الإسكندرية في نفس يوم حريق القاهرة - أتخذ ما اتخذت من احتياطات وإجراءات.

كان يوم ٢٥ يناير يوافق يوم جمعة.. يوم الإجازة.

وبعد الظهر وكنت في منزلي في حي زيزينيا بالإسكندرية، أحسست برعشة خفيفة جعلتني أسارع إلى تناول فنجان شاي وحبة أسبرين..

وربما نمت ساعة، أو أكثر .. وعندما استيقظت وكانت الساعة تقترب من السادسة مساء، مددت يدي إلى جهاز الراديو الكبير الذي يوجد إلى جوار السرير على مائدة خاصة، فلم تكن أجهزة الراديو الترانزستور قد ظهرت بعد.. حولت مؤشر الراديو إلى محطة لندن وكان أول خبر اسمعه عن وقوع صدام بين قوات الشرطة المصرية أو ما يسمى «بلوك النظام» والقوات الإنجليزية في مدينة الإسماعيلية، وأن القوات الإنجليزية بدباباتها ومدافعها الثقيلة اشتبكت مع رجال الشرطة المسلحين ببنادق من طراز (رمنجتون) القديمة وهاجمت ثكنتهم، وأنهم لم يستسلموا إلا بعد أن نفدت ذخيرتهم ودكت القنابل ثكنتهم، وبلغ عدد ضحاياهم ستين جنديا.

إجراءات أمن مشددة

كان الخبر مثيرا.. وقد تركت على أثره سريرى ونسيت رعشة الحمى التى كانت قد انتابتنى قبل أن أغفو .. بدأت أفكر فى بلدى .. فى الإسكندرية التى أجلس على قمة المسئولية عنها.

إن فى الإسكندرية عددا كبيرا من قوات «بلوك النظام» ورجال البوليس مثلهم مثل المدنيين بشر .. ومن المؤكد أنهم حينما يسمعون مقتل زملائهم فى الإسماعيلية لن يسكتوا.

ثم إن الجماهير والطلبة فى مقدمتهم لا بد أن يعبروا عن غضبهم من هذا العدوان الكبير على جنود مصريين لم يكونوا يملكون إلا أقدم الأسلحة وأمامهم عدو تحمله الدبابات والمصفحات ويختفى خلف مدافعها..

من المؤكد أمام كل من يشتغل بالأمن أن يتوقع قيام المظاهرات والاحتجاجات .. وعندما بدأت أحصر حدود الإسكندرية بخيالى وجدت احتمالات كثيرة.. فالإسكندرية مركز تموين للبترول، وفيها أكبر مخازن الغلال والقطن والأخشاب، وفيها أكبر مستودعات البترول، فماذا لو اندست عناصر التخريب بين الجماهير وحاولت إثارة المشاعر وأشعلت النار فى تلك المستودعات؟!

لم أكن نبيا حتى أفكر فى هذه الاحتمالات، وإنما كنت أفكر فيها بحكم طبيعة رجل الأمن المختفى داخلى من خلال خبرة سنوات عملى مديرا للأمن العام ووكيلا للداخلية.

وهكذا قررت العمل فورا.

طلبت قائد شرطة الإسكندرية فى ذلك الوقت اللواء يسرى قمحة، وقلت له ما سمعته فى راديو لندن وما فكرت فيه.

قال اللواء قمحة: وماذا نستطيع عمله؟

قلت: ضع الإسكندرية فى منتصف الليل تحت نظام طوارئ وأرسل جنودك لكى يحتلوا جميع المستودعات وصهاريج البترول.

قال: هل سنستعين فى ذلك بجنود بلوكات النظام.

قلت – أبدا .. جنود بلوك النظام اجمعهم وأرسلهم فى لوريات عند الفجر إلى صحراء العامرية.

قال: إن معنى ذلك أنك تريد إبعادهم عن المدينة.

قلت: بالضبط..

قــال: ولكن الذى أريد أن تعرفه أن لهؤلاء الجنود بالذات مشــكلة خاصة لأن لهم علاوة طوارئ لم تصرف.

قلت: تصرفها لهم فورا.

قال: نصرفها ازاى، ونحن فى السابعة مساء، واليوم الجمعة؟

قلت: استدع المسئول عن الخزانة، وأطلب إليه باسمى أن يفتح الخزانة ويصرف مستحقات كل هؤلاء الجنود.

لم تكن الحكاية بسـيطة، فالرئيس المالى اعتبر ذلك تدخلا، لأن الصرف لا يكون إلا بأمر وزارة المالية، ولكننى استطعت حلها بإرسالى إليه تعهدا كتابيا بمسئوليتى.

ولم تتوقف الإجراءات التى طلبتها عند رجال الشرطة. بل اتصلت بقائد حامية الإسكندرية العسكرية، وطلبت إليه إنزال جنود الجيش لحراسة المرافق العامة كالماء والكهرباء والبريد ومحطة السكك الحديدية.

وقد اتصل قائد الحامية بقائد الجيش (الفريق محمد حيدر) الذى تردد كثيرا، ولكن أمام إلحاحى وافق أخيرا.

وهكذا .. قبل أن تشـرق شمس السـبت السادس والعشرين من يناير ٥٢ على الإسكندرية كان الجيش والبوليس يسيطرون على مواقع الحراسة وعلى جميع مرافق الإسكندرية.

أمــا جنود بلوك النظام فقـد كانوا فى العامرية يمضون عند البحر إجازة سـعيدة بعد أن صرفوا علاوة الطوارئ المتأخرة لهم، وقد تصوروا أن احتجاجهم على تأخر صرف هذه العلاوة هو الذى جعلنى آمر بفتح الخزانة لهم مساء يوم الجمعة لكى يصرفوا علاوتهم المتأخرة!

□□□

١ – الملك فاروق يؤدى التحية العسكرية فى لقائه التقليدى مع الجيش فى ٤ فبراير من كل عام .

٢ – أطلال محلات شيكوريل أكبر محلات القاهرة كما بدت مساء الأحد ٢٧ يناير ١٩٥٢ فى اليوم التالى للحريق .

٣ - فؤاد سراج الدين وزير الداخلية المسئول يوم حريق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢ وقد ظهر إلى جانبه المهندس/ عثمان محرم وزير الأشغال .

٤ - مشهد من شارع عماد الدين أثناء حريق القاهرة .